عـــــدل السماء

للأستاذ كامل محمود حبيب

اتذكر — يا رفيق — يوم أن تخرجت فى الجامعة ، يوم كنت تدلُّ بقسامة الوجه ونضارة الصفحة ، وتختال بصلابة العود واكتمال العضل ، وتفخر بقوة الشباب ونشاط الحياة ، وتعتز بالسمة فى الرزق والإشراق فى المستقبل ، وتنيه بوظيفتك الحكومية على صحابك وذوى قرابتك ، وتزهى بميراثك من أمك وقد اغتصبته من أبيك منذ أن تخرجت فى الجامعة ضناً به عليه وعلى اخوتك من أبيك ؟

وركبك الغرور والشيطان ، فأنت فى سمة من المال والعلم ، وأنت فى وظيفة تدر عليك ما يفيض عن حاجاتك ، وأنت عزبٌ تعيش فى نوازع نفسك ورغبات قلبك ، هى لا تكلفك كثيراً ، فما تنزع بك إلى فاحشة ، ولا تندفع بك إلى جور . فقضيت سنوات منطوياً على نفسك ، تبيت تحصى ما ادخرت ، ثم تودعه درج مكتبك ، أو مكتب البريد ، فادخرت مالاً .

وجاءك أبوك — ذات مساء — يستعينك على أمره ، وقد عصرته الحاجة ، وجلس إليك فى خلوة يحدثك بذات نفسه يقول : « ... وأنت تعلم — يا بنى — أنى قد ضربتُ بداء أفضل على الأطباء شفاؤه ، وأنا بين الأطباء كالشاة يتجاذبها الذئاب ثم لا يلفظونها إلا رمة . وللطبيب أفانين طبية تبتز مال الفقير ، وتستلب ثراء الغنى ، ومن ورائه القانون يشد عضده بين يمسك بالشرط ، وحين يمسك بالقلم ؛ فابتلع الطبيب والمرض فى أشهر ما ادخرتُ فى سنوات ، وأولادى كثير بينهم الشاب والصبى والرضيع ، وأخشى أن تكشفنى الكواشف وأنا فى قرية شيدت على البغضاء والشحناء ، وبين أهل انطبعوا على الحقد والضغينة والغل ، يخفونها وراء ستار صفيق من الحب والمودة والإخاء ، وهم بين صغير يتربص بالكبير أن ينحدر إلى الهاوية ، وفقير يتمنى للغنى أن ينهار إلى الحضيض ؛ وإذا نزلت واحدة نازلة ابتسم الجميع فى غل وشماتة ، وتندَّروا به فى سخرية وتشف ، ثم قال قائلهم — وهو فى يسر وغنى — : « آه ، لو أستطيع أن أعينه على بلواه ! » ثم يتوارى خيفة أن يعين قريبه بفضلة من مال ... وأنت ، يا بنى ، رجل ذو مال ، ولقد جئتك لتقرضنى بعض مالٍ أستر به ضعفى وحاجتى . وهذه « كمبالة » بالمبلغ الذى أريده » .

وكانت كلمات أبيك تتدفق أسى وحزناً ، ونفسه تتقطر ذلة وانكساراً ، وأحس وهو إلى جانبك يحدثك حديث حاجته أنه ينحط بكرامته وينزل من كبريائه ، وكانت سلوته أنك أنت ابنه وله عليك حق . ولما أتم حديثه نظرت إليه فى ترفع وصلف ثم قلت : « يا أبى ، إن حاجات المدينة لم تدع لى وفراً من المال ، وأنا لا أعرف من أستقرضه لأدفع لك ما تريد » !

آه ، يا قلبى ! لقد أحس أبوك بالضعة حين رآك تستعلى عليه ، وشعر بأن كلماتك الجاسية تصفعه صفعات قاسية متتالية ، وأراد قلبه أن يبكى حسرة وكمداً ، ولكن الدوار كان قد قلبه ، فترنح حيناً ثم سقط بين يديك ... سقط فارق قلبك ، ولا اضطربت نفسك !

وخرج أبوك من لدنك وهو يتمتم بكلمات لم تسمعها أذن ... ما ذا قال ؟ ليت شعرى ! هل كان يستنزل سخط السماء على ابنه العاق ؟ !

وعاوده المرض بعركه عركا شديداً من أثر فظاظتك وخشونتك ، وألح عليه السقام فما تركه حتى مات ... مات أبوك لأنك أنت فقدت إنسانيتك ورجولتك ، ولأنك نسيت أنك ابن أبيك !

وظن اخوتك الصغار أنك الأخ الأكبر ، وأنك أنت الأب بعد أبيهم ، ولكنك كنت وجدت فى قلبك حلاوة المال ولذة الدينة ، فانطويت من القرية ، وابتعدت عن أهلك وأقاربك ، ثم انطلقت تنعم بالحياة ، وتتلذذ بارخاء ، وترتاح إلى الوفر ، واخوتك

بحسب العلم الطبيعى ترى الجاذبية موجودة مع الأكوان منذ الأزل ومنبثة فى كل ذرة من ذرات العوالم المادية وجميع حركات الذرات والأقمار والسيارات والشموس والسدم — كل هذه تتحرك فى « الزمكان » (زمان مكان) بقوة الجاذبية تتحرك كيمياوياً وحيوياً وميكانيكياً ، هى قوة قصوى موجودة فى كل مكان وزمان ، ولكنها لم تخلق العوالم من العدم .

هذه النظرية يمكن أن تتفق مع وحدة الوجود ومع ثنائيته أيضاً — وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

نفوز الحرار

٢ شارع البورصة الجديدة — القاهرة

في القرية يتنازعهم شظف العيش ، وجفوة الحياة ، وغلظة الأهل ، وقسوة الأقارب ، فمشت أنت وعاشوا . . وما تبضّ كفك بدرهم ، وما ينبض قلبك بعاطفة !

وتماديت في قسوتك ، فرحت تفزع الطير الآمن من عشه : هذه دارك ودار أبيك ، تقاسمتماها على سواء ، لأنها ميراثكما من أمك ، وهي عش اخوتك الوحيد منذ أن ولد كبيرهم . وها أنت تصر عليهم أن يدفعوا لك أجر نصيبك من الدار التي يسكنون . وأصررت وأصرت المحكمة الحسبية . ثم رافقت المحكمة الحسبية — بعد لأي — أن تباع الدار في مزاد علني ، فاشتريتها أنت ، اشتريت نصيب أبيك (المرحوم) لأنك تجد المال ، ثم قذفت بأخوتك خارج الدار ، لأنك لا تجد الإنسانية ، وأفزعت الطير الآمن عن عشه ، وهو قد اطمأن إليه منذ سنوات وسنوات . وجاءت زوجة أبيك وابنها الأكبر — أخوك — يسألانك المهلة والرفق ، فما أعرفهم أدناً ساعية !

ونسيت أن زوجة أبيك قد كفلتك طفلاً ، وأنها كانت أحنى الناس ضلوعاً عليك يوم أن اصطلحت عليك العلل وأنت صبي ، وحين قرر الطبيب أن المرض معد تحاماك كل أقاربك ، حتى عمتك رفضت أن تدخل الحجرة التي عُزلتَ فيها خشية أن يصيبها ما أصابك ! أما زوجة أبيك فقد قضت أربعين يوماً تقدم لك الطعام وتؤاكلك وتجلس معك وتداعبك وتخفف عنك وعكة المرض وقسوة الوحدة ، وأبوك ينظر ويبسم لما يرى من عطفها عليك ، وهو يشعر براحة القلب وهدوء البال من أثر ما تفعل . ستقول إنها فعلت لتكسب رضاء أبي ومحبته ، ولكنها تحملت — يا رفيق — في سبيلك ما ضنّ به أقرباؤك عليك !

ونسيت أن من بين اخوتك من كان يحمل إليك الزاد من القرية لا تزجه وعثاء الطريق ولا يصرفه عناء السفر ، ومن كان يفرج أزمتك وأزمات الطالب لا تنتهي ، ومن كان يخفف عنك متاعب الحياة ومصاعب الدرس ؟ ! .

نسيت كل ما كان وأصررت على أن تفزع الطير الآمن عن عشه !

لقد ركبك الغرور والشيطان ، فتماديت وتماديت ، لا ترتدع من دين ، ولا تفيء إلى خلق ، ولا تسمو إلى إنسانية ، ولا ترتفع عن مادية . وتعللت السماء من وحشيتك فأرادت أن تنتقم من أرضيتك !

يا لله ، تقد ضل هذا الفتى حين ركبه الغرور والشيطان فغشى بصره ، وشغل عن سواء السبيل ، وغفل عن أن في السماء عقاباً لا يعجل ... فما ذا كان ؟

آه — يا رفيق — لقد بدأت الروحانية تنتقم منك — أول ما بدأت — في أسلوب حلو جميل ، تتضوع منه ريح العطر واللذة والسعادة والمال . كان ذلك حين طرقت باب « فلان بك » تخطب إليه ابنته ، فما تمهل ولا تعوق ، وحين زفت هي إليك في ثوبها الأبيض الناصع الجميل ، تتألق في ثلاثة منابع من النور : نور وجهها الشرق الجذاب ، ونور جواهرها الوضاءة المتلألئة ، ونور الكهرباء المتناثرة في المكان ؛ وحين جلست إلى جانبك على عرش الورد ، والوسيق ترسل أنغامها الشجية الأخاذة ، فتملأ المكان نشوة وطرباً ... حين ذاك نسيت أنك أنت !

ثم مات (سعادة البك) فطرت أنت فرحاً ، وقضى الناس ليلتهم في حزن ونواح ، أما أنت فانزويت في ناحية تحدث نفسك حديث الثراء الذي ورثته زوجك من أبيها ليكون ملكاً لك ، وسيطرت عليك النشوة فسلبتك وقارك ، فرحت تنشر ذات نفسك على رفاق من رفاقك !

وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى جاء الدائن يجر الدائن ... يستوفون ديونهم من ميراث (سعادة البك) ، وجلس الكاتب يكتب والحاسب يحسب ، فإذا سعادة البك لا يملك ما يسد به دينه ، وإذا أنت صفر اليدين . ولكن ابنة (البك) ما تزال هي !

ومرت الأيام ، وابنة (البك) لا تستطيع أن تكون زوجاً لك ، نعم في أيمتها وكبريائها لا تنزل عن حاجة من حاجاتها ، وترفعت — بادئ ذي بدء — عن أن يبدو عجزك أمامها ، فهل استطعت أن تشبع رغباتها وهي تنطلق كل ليلة إلى ضجة الحياة الليلية : تهفو إلى السينما ، وتسعى إلى المسرح ، تصبو إلى الخمر ، وتحن إلى القمار ، ثم هي لا تصبر على الدار ، لأنها تحب الشارع ، وفي الشارع أساليب من الحياة تنزع عنها الملل والضيق ؟ هذا المال الذي ضننت به على نفسك وعلى أبيك ، وبخلت به على اخوتك وأهلك ، ينسرب اليوم من بين يديك في غير مهل ولا روية ؛ فأنفقت في يوم غلة شهر ، وأنفقت في شهر غلة سنة ، وأنفقت في سنة ما ادخرت منذ تخرجت في الجامعة ! ثم امتدت يدك إلى ميراث تبتره ، وما هو بكثير !

ثم أسقمك السهر وأضناك التعب وعلقت بك الخمر وشغفت